13 me Année No. 637

Lundi - 17 - 9 - 1945

# الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
٨٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٣٧ « القاهرة فى يوم الإثنين ١١ شوال سنة ١٣٦٤ — ١٧ سبتمبر سنة ١٩٤٥ » السنة الثالثة عشرة

## درسان من دروس الحياة

للأستاذ إبرهيم عبد القادر المازنى

من أول ما تعلمته فى حياتى أن الدنيا لى ولغيرى ، وأنى لم أعطها وحدى ، ولا أعطيها سواى ملكاً خالصاً له ، ونحن جميعاً شركاء متكافئون فى الحقوق ، وعلينا من أجل ذلك واجبات متماثلة . وما دمنا شركاء إلى حين ، وما دام أن المقام فى الدنيا على كل حال قليل ، فإن من الحماقة أن ننغّص على أنفسنا هذه الحياة القصيرة بالعنت ، أو أن نؤثر التى هى أخشن على التى هى أحسن فى سيرتنا ، وقد كنت أحمق الحمق فى صدر حياتى ، وما زالت بى بقية غير هينة من الحماقة ، فما انفكت الدنيا تنفضنى كما ينفض الأسد فريسته ، وتشيلنى وتحطنى ، وترجنى وترمينى من هنا وهنا ، حتى فاءت بى إلى الرفق والهوادة فأرحت واسترحت

أى نعم ، تتسع الدنيا لى ولغيرى ، وتستغنى عنا جميعاً ! وليس أضل رأياً ممن يتوهم أن الحياة لا تطيب له إلا إذا خلا طريقه فيها من الناس . وما أحكم قول الإنجليز فى أمثالهم : « عش ، ودع غيرك يعيش » ! وما على المرء إلا أن يفكر فيما عسى أن تخسر الدنيا إذا هى خلت من الناس وعادت خراباً يبابا ؟ لا شىء ! لن يكف الفلك المسير عن الدوران ، ولن يعوّق الشمسَ شىء عن الطلوع والأفول ، ولن تعدم الحياة على الأرض مظهراً آخر تتبدّى فيه كما تبدّت فينا نحن بنى آدم ! وهل نحن إلا صورة من صور الحياة ؟ وهل أعظم غروراً أو أقل عقلا ممن يكبر فى وهمه أن الحياة تنعدم إذا انقرض الإنسان وتقلّص ظله عن الأرض ؟

ولا يتوهم أحد أن هذا كلام زاهد أو متزهد ، فما أنا بهذا ولا ذاك ، وإنى لمن أشد الناس رغبة فى الحياة الرضية ، ونشداناً للعيش الرغيد ، وطلباً لأطايب الدنيا ، وعكوفاً على متعها الشهية ، وكل ما فى الأمر أنى لا أرى أن فوزى بما أبغى لا يستوجب أن يُحرم الناسُ غيرى ما يطلبون ، أو أن يخيبوا ويخفقوا . وأى دنيا تكون هذه إذا كان نجاح فرد فيها وتوفيقه فى إدراك آرابه لا يتسنى إلا بخيبة الباقين ؟ ثم إنى لا أحس أن الناس ينافسوننى أو يزحمونى أو يضيقون علىّ المجال ، فإن الأرض رحيبة ، ومجالاتها لا آخر لها ، وما رأيتنى عجزت قط عن اختراع طريق بكر ، أو الاهتداء إلى ميدان جديد ، إذا شعرت بالحاجة إلى ذلك

وصحيح أن الحياة جهاد — جهاد مع الطبيعة ومع الإنسان — ولكنا لسنا من الحيوان ، فنضالنا لا ينبغى أن يكون بالأنياب والمخالب ، بل بالعقول . ونضال العقول متعة ، وليس يعيى به أو يستثقله أو يضجر منه إلا من لا يصلح لغير حمل الأثقال كالدواب . وليس أمر الدنيا إلى هؤلاء المساكين المستضعفين الذين يساقون ويسخرون ، بل إلى أصحاب العقول . حتى حين تقوم الثورات لا تكون الثورة فى حقيقة الأمر من الجمهور الأكبر والسواد الأعظم الذى يسفك الدماء ويعيث بالخراب والدماء ، بل ممن يدفعونهم إلى ذلك ويغرونهم به ويحضونهم عليه صراحة وتلميحاً ، وعفواً أو عن عمد ، أى من أصحاب العقول . ولست

تستطيع أن تحصر عقول الناس أو تعقل ألسنتهم . وحير وأرشد — لك ونفس — أن لا تفعل حتى إذا استطعت . وتصور دنيا ليس فيها من يفكر بعقله وينظر بعينه غير واحد ليس إلا ! أى مزية يستفيدها هذا الفرد؟ وأى متعة أو نعيم له فى حياته مع أشباه البهائم؟

إن متعة والنعيم فى هذا النضال الذى تتصفح فيه عقول منافسيك وتضيفها إلى عقلك ، وأنت بذلك تكسب أبداً ولا تخسر ، وتغنم كل يوم ثروة ذهنية إلى ما أوتيت من ذلك ، وتمنع عقلك أن يبلد ، لأنك لا تنفك بفضل النضال الذى لا مهرب لك منه ، تجهد وتشحذه وترهفه

ولكن المرء لا يستطيع أن يناضل بعقله الفطرى . وأعنى بالفطرى الذى لا زاد له من العلم ، ولا مدد من المعرفة . وشبيه بذلك أن تقاوم متذوقات المدافع بالحجارة . فلا معدى لنا عن تعهد ملكاتنا وتزويدها بالأداة التى تجعلها أمضى وأكثر غناء

وعلمنى الابتسام ! وإنه لعجيب أن يحتاج المرء أن يتعلمه ! أنه يقل بعضهم فى تعريف الإنسان إنه حيوان يبتسم ؟ وأدعى إلى العجب من ذلك أن تكون المحن والشدائد هى التى علمتنيه وعودتنيه ! إى والله ! فقد كان صدرى يضيق ومرارتى تكاد تنشق ، من الغيظ ، وكنت أجزع إذا حاق بى ما أكره ، وأقنط من نصرتى على اجتياز المحنة ، حتى تلفت أعصابى واسودت الدنيا فى عينى ، بل كاد نور عينى يخبو وينطفئ لفرط ما كنت أعانيه من الاضطراب والألم والكمد ، ثم لطف بى الله فتمردت على نفسى . وصرت إذا عراني ما كان يعروني من الجزع أو الخوف أو الاضطراب أقول لنفسى : قد جربت مثل هذا من قبل ، وعرفت بالتجربة أنه كله يمضى ولا يخلف أثراً ولا يورثنى إلا الأسف على ما أنهكت من أعصابى فى احتماله ، وقد لدغت آلاف المرات : فلا يجوز أن ألدغ بعد ذلك أبداً ، وخليق بى أن أتلقى كل ما يجىء — لا بالصبر والتشدد ، فقد كان ذلك ما أفعل وإن يكن يكفى — بل بالسخرية والتهكم — سخرية العارف وتهكم المدرك للقيم الحقيقية للأشياء — وبالابتسام الذى يهون كل صعب ويحيل كل جسيم ضئيلا .

وإذا بالابتسام له فعل السحر بل أقوى . تفتح حنكك ربع قيراط ، وتكلف عينك أن تومض قليلا فتتغير الدنيا كلها ! تجف الدموع إذا كنت تبكى ، وينضب معينها ، وينشرح صدرك إذا كان منقبضاً ، وتشعر بخفة فى بدنك بعد أن كان على كاهلك وقر تزوح تحته ، وزايلك ما كنت تحاذر كأنما كان ظلا ارتمى عليه نورفنسخه ، ويتجدد الأمل الذى كان قد استحال إلى يأس ، وتنشط للعمل والسعى والجهاد وأنت مفعم بالرجاء ، بعد أن كانت رجلاك كأنما شدتا إلى قنطارين من الحديد ، ولا تعود تبالى أنك فى ضيق ، أو أنك عاطل ، أو مريض ، أو أنك فقدت عزيزاً ، أو أن تجارتك بارت وخسرت ألف ألف جنيه ! كل ذلك الكرب المض يصبح غير ذى قيمة لا لشىء سوى أنك استطعت أن تبتسم ! ولست أعنى للقراء إلا الخير محضاً ، ولكنه ما من حياة تخلو من دواعى الانقباض أو الألم أو الحزن ، فليجربوا الابتسام إذا مر بهم — لا قدر الله — شىء من ذلك ، وليتأملوا فعل سحره ، فقد وجدته فى كل حال وصفة نافعة .

وليس الابتسام سهلا فى مثل هذه الحالات ، فإنه مقالية للنفس ، ومقالبها تتطلب جهداً عظيما ، ولكن الثمرة تستحق العناء ، والمثوبة على قدر المشقة . وأول ما يكون على المرء أن يتغلب عليه ، هو الاستحياء من أن يتبسم فى موقف حزن أو كرب شديد مخافة أن يقول الناس إنه يسرف فى التكلف . وما من شك فى أنه لا يتأتى فى أول الأمر إلا بتكلف شديد ، ولكنه لا يلبث بعد أن ينجح فى تكلفه أن يصبح طبيعياً ، لأن مجرد الابتسام يفجر ينابيع البشر فى النفس فتفيض

ولأن يتكلف المرء الابتسام خير — وأسهل أيضاً — من أن يحتمل ما هو فيه من الآلام ، وما يساوره من المخاوف والوساوس والأوهام

ومتى ابتسم المرء فى الشدائد والمحن ، فإن الميزان يعتدل من تلقاء نفسه ، فيفطن المرء إلى القيمة الحقيقية — لا المتوهمة — لما هو فيه أو لما يخشى أن يكون . فتراه يقول لنفسه إذا كان قد فقد عزيزاً : « لقد مات ، وكان لا بد أن يموت يوماً ما ، وسنموت جميعاً متى وافانا الأجل ، فلا حيلة فى هذا . وصحيح أنه مات فى وقت أنا أحوج ما أكون فيه إليه وإلى عونه ، ولكن إطالة عمره لم تكن فى يدى ، واستغراق الحزن لى ليس من شأنه أن يجعلنى أقدر على النهوض بالعبء الذى انتقل إلى كاهلى »

وكان قبل أن يبتسم يقول : « يا ويلتاه ! وا مصيبتاه ! ماذا أصنع الآن ! لقد فقدت المعين ، فأنا ضائع لا محالة ! وكيف تطيب الحياة لى بعده ؟ الخ الخ » . نعم ، هو سحر ، ولكنه سحر فى وسعنا جميعاً أن نعالجه ونوفق فيه . وكل شىء فى مبتداه عسير ، ثم يهون بالمرية والمرانة ويصبح عادة وأشبه بالطباع ، ويكسب المرء مناعة وحصانة ، فلا تعود صروف الأيام قادرة على تقويض كيانها ونقض بنيانها . فجربوا هذا كما جربته ، واشكروني

المازني